الشبيه

متولد

بقلم
مرشد رستم

كان ذلك بدار السينما في احدى ليالي القاهرة في جو حريمها اللطيف وكان (راتب) قد تناول العشاء على مائدة صديقه (عزمي) وزوجته السيدة الفاضلة (كليرة هانم) التي كانت تزين المائدة روحها وبهاء بروحها المرحة وحديثها الشهي ، أزعى واشهى من تلك الزهرات الجميلات ومن هذه المتقسات من الصحاف والمشهيات .

امتد حديث المائدة مما جعلهم يصلون الى دار السينما بعد ابتداء العرض .. فاتجهوا مسيلهم في الظلام الى مقصورتهم المحجوزة من قبل .

ولما انتهى القسم الاول من العرض أنيرت الصالة وبدأت حركات الاستطلاع بين الجمهور ، واحد الحاضرون يتبين بعضهم بعضا . وهي عادة كانت لها اهميتها البالغة عند رواد السينما المصرية في ذلك العهد ، وبالاخص في حفلات المساء المزوقة بالسواريه .. حيث تعقدها العائلات في المقصورات ، وكم من التعارف وكم من الصداقات بل كم من الزيجات تمت في تلك الأجواء مثلها مثل شواطىء البحار والبلاجات مع فوارق كبيرة بين هذه وتلك .. بين الدور المقفولة وبين الطبيعة المفتوحة . الطبيعة الساهرة المكشوفة التي تهيىء في المصايف كل أنواع الاختلاط بين مختلف الناس والاحساس لأيام طويلة مقمرة ومظلمة، ليلا ونهارا ، بحرا وبرا .

اشتملت كليرة هانم بشحارة من شحاريرها الفاخرة واعطت واحدة لراتب ثم أحالت بصرها في الصالة ، واذا بها تعود مسرعة من جولتها .. وكأنها كشفت شيئا غريبا او وقعت على أمر خطير .. ثم اقبلت على زوجها السيد عزمي في كثير من الاهتمام بالنظافة والرقة ، تسترعي نظره الى احدى المقصورات القريبة ، وابدت اشارة لطيفة خاطفة بغمزة العين الذكية عرف منها عزمي انه ليس هو المقصود بكلامها وانما الكلام الى صديقهما راتب على حد قول المثل ، الكلام لك واسمعي يا جارة وكان راتب قد لحظ هذه المناورة الخفية وأدرك ما تقصده كليرة هانم من المداعبة، ولكنه تظاهر بالتجاهل وكأنه لم يلحظ شيئا .

عزمي ـ (مبتسما) كل مما يا سيد راتب .

راتب ـ اسى ممكنا اسمع واري

كليرة هانم ـ ابدا ، انت لست معنا .. انا أعرف ان انت الآن ـ كما أعرف انك حما ترى ولكنك حقا لاتسمع .. معذور، ان من كانت عليه العيون والابطار فله حق التسامي وحق السعادة .

عرمي ـ مادا في الامر ؟ ايه الحكاية؟ حبرانى .

كليرة هانم ـ ان سيدة جميلة مع جماعة من السيدات والرجال في احدى المقصورات القريبة منا تشير الى راتب بنظراتها .. ثم تتحدث عنه كثيرا .. وتلفت نظر من معها اليه .

عرمي ـ ومادا في هدا ؟ ثم كيف أدركت دلك ؟

فتقول انها تكاد تجزم بذلك رغم انها لاتسمع الالفاظ لبعد المسافة ثم تقول : هذه امور تعرفها نحن ولا تعرفونهـا انتم ، ومن يدري ياسيد راتب ، لعـل الفرج قريب فـلا تعـود تراك وحيـدا فريدا .

***

وهنـا انتهت فترة الاستراحة ، وأطفئت الانوار وعاد الظلام فاتجهوا الى الشاشة وقد أحدثهم طلاوة الرواية والمناظر والموسيقى والتمثيل .

وعند انتهاء العرض كان اولئك الذين يحتلون تلك المقصورة قد تركوا اماكنهم في آخر الظلام وقبل الزحام . والله يعلم وتلك السيدة تعلم وراتب يعلم وربما آخر يعلم لماذا قامت تلك السيدة مسرعة ومن معها قبيل انتهاء العرض وقبـل اضاءة الانوار .

وفي الحق ان راتبا يعرف تلك السيدة أكمل معرفة .. ولكنه اراد التغطية وقد أنقذها انقاذا ببراعة فائقة . وكان قد عقد النية من زمان بعيد على الاحتفاظ بسره مع نفسه، غير انه ظل يفكر دائما كانت تتحدث عنه . ولماذا تعمدت التظاهر بذلك ، مع انه كان أول بها ألا تفعـل ذلك على الاقل بل على الاهم ان زوجها معها ، ثم لماذا هي تبـدي ذلك النوع المائع من الابتسامات «الوكيدية» .

عاودت راتبـا الذكريات وشعر انه يسايرها في النظرات ، يختلسانها اختلاسا مع تبادل التيـارات العصبية الخفية التي تخترقهـا القلوب التي في الصدور .

واني لألقاها وقد سر طرفها
بطرفي بما يخفي وان لم تكلم
وتحل عني بالسلام وعينها
تشير بها نحوي وان لم تسلم

وهذه «المقابلة» التي لم يعلم بها احد سواهما ، والتي لم يكن يتوقعها راتب او يريدها جاءت بعد هذه السنين الطويلة التي كانت قد سكنت فيها لواعجـه وهدأت عواصفه وكان قد ربط الجاشها على قلبه ليكون من الصابرين الناسين لولا الحنين وصدى السنين .

والليلة وقد أطلت الذكريات من خلال هـذه النظرات بعد طول هـذه السنين يتذكر راتب ويذكر ما يعتقده دائما من ان ذكرى الشقاء شقاء وذكرى السعادة شقاء .. ذلك ان الذكريات انما هي حسرات .

ومن النفوس ما ليس لها الا ما هو بين يديها، وقد تنقلب مع الجهات «الاربع» دون تمتع او تقنع بل وفي تعد وتصنع

مع العمرة على النسيان ، هذا النسيان الذى قد يحيى الانسان ولكنه يميت الوجدان .

واما السيد راتب فهو من اولئك النفر الميامين النادرين الذين لا تموت العاطفة عندهم ابدا .. يعيشون الحب وهو دفين ، لايطرأ عليه تبديل أو تحوير أو تغيير ، مهما زلزلت الارض وزلزالها واخرجت الارض اثقالها ، ومهما طال عليهم القدم أو تعرضوا لشتى المحن .. يحيى الزمان ويروح واست حسب الاجل ، .. الخ ..

والآن . اليس من الخير للمرء أن يحب ويتعذب ويفقد من الا يحب ابدا ؟ ثم هل فى طوع المرء ان يحب والا يحب ؟ هل يستطيع المرء الذى يحب ألا يحب ؟ تلك اسئلة وأمثالها لاتزال قائمة دون أن تكون لها اجابات قاطعة حاسمة .

حاول راتب ألا يشغل باله بتلك القلقة المقلقة ولكنه سهر الليل فى قلق ، ونعى عينه الكرى طيف ألم . واستسلم على قلقه وأرقه باسطوانة « لحن الحب » الشهيرة لاحد اكابر الموسيقيين العزيين ، فاذا به لاستسيغ سماعها الليلة وقد كان يرتاح اليها كل ليلة ، وجعل يقول . ما أجرأ هذا الموسيقار . انه يريد أن يقحم حب حبه على حب غيره الا يدرى أن لكل محب حبا وان لكل حب لحنا ؟

***

وفى الصباح التالى اذا بكليرة هانم تطلبه تليفونيا وتقول له بعد تحية الصباح بانها حاولت الاتصال به ليلتها فلم توفق ، ثم هى تؤاخذه على عزوفه عن الناس أحيانا كثيرة ، مع انه بطبعه الاصيل رجل اجتماعى يحب الناس وتحبه الناس .

ثم تخبره بانها عرفت كل شىء بخصوص حادثة السينما وحديثها .. وانه ترى مما كان تتهمه به فيشكرها راتب لاهتمامها ، ويسألها زيادة الايضاح .. فتقول

كليرة هانم ـ بعد ان تركناك امس احدنا مقعدنا بمترو مصر الجديدة من اول محطة شارع عماد الدين لقربها من سينما دنيا .. واذا بنا فى مواجهة الجماعة اياهم الذين كانوا فى تلك المقصورة ، وتبادلنا التحيات ، ومما حزانى على ذلك اسى وحدت تلك السيدة التى كانت تتحدث عنك ، وحدتها سيدة لطيفة ، كريمة النحيمة ، طيبة اللقاء ، لها حادثة وفيها دعة كما لاحظت عليها الى المعاشرة والاختلاط وكذلك الرغى الذى أميل أنا كذلك اليه .

راتب ـ سبحان من وفق وجمع .. ثم ماذا ؟

كليرة هانم ـ لماذا تتعجلنى هكذا ! . هل فيما فعلت شىء لا يرضيك ؟ ان اعصابك فى هذا الصباح هى بين هادئة وعاصفة .. على رأى تنوءات الجو . فما بالك طوال اليوم .. اهدأ يا اخى اسمع ان المسألة بسيطة وان كانت غريبة ، يظهر انه كان لك شبيه يقرنك كثيرا فى الشبه والشكل والحركات .

راتب ـ ماذا ؟ شبيه !! من هو هذا الشبيه ! شىء جديد .

كليرة هانم ـ نعم ، وماذا فى هذا ، يخلق من الشبه أربعين ، انك عدمى المزاج اليوم .. المسألة منحصر فى انهم كانوا يظنون انك اياه لدقة ما بينكما من

الشبه ، ولكن تلك السيدة هي التي كانت تفهم بأنك لست هو

راتب هكذا ! وهل هي تعرفني ؟

كليرة هانم ـ انك غريب الشأن ، هي لم تقل انها تعرفك ، هي تقول انها تعرف ذلك الذي كان يشبهك ، ذلك الشبيه ، والذي تقول انه مات منذ عشرين عاما ، فهل ارتاحت نفسك الآن ؟ كن يا اخي طويل البال واسع الصدر ، حسن الظن ؟

راتب ـ (متهكما) عزيمة ! يظهر انها قوية الذاكرة ؟

كليرة هانم ان تقارب التشابه هو الذي أثار الحديث ، ولكن دعنا من هذا (مداعبة متهكمة) ان الامر أجل وأعظم لقد سألتني عنك ومن تكون وهل انت متزوج أم لا ؟

راتب ـ ما شأنها ؟

كليرة هانم حبذا لو علل رسلك انها أحاديث السيدات ، وقد اخبرتها بكل شيء عنك وعن زواجك وموت زوجتك من زمان بعيد ، وانها كانت شابة جميلة أصيلة ، مهذبة ، ان حبكما كان نادرا حتى انك ترفض سفيرة الزواج الزواج ، وترفضه من أجلها رغم المحاولات معك وقد أعجبت بذلك وامتدحتك ؟

راتب ـ شكرا ، وبالاخص فيما يتعلق بالزواج والتزوج كما يفعل الكثيرون مرة بعد مرة ! قل كل بعمل على شاكلته ؟

كليرة هانم ـ الهدوء الهدوء الا تحضرتعشى اليوم معنا ؟ أرجوك وعزمي يرجوك ، وأنا أسمة لاثارة موضوع المزوجة زوجتك ، هذا وسيبت أن أذكر لك باسي سأزورها بناء على الحاحها ؟

راتب هكذا بسرعة ! متى ؟

كليرة هانم ـ ستعشى تلعوبيا ؟ هل في هذا غرابة ! أقول لك الحق انني استطلعتها ؟ ثم قل لي ياأخي ، هل بينك وبينها ثأر ؟ ماهذا ! أسمع نحن في انتظارك ؟

راتب ـ لاثأر ولا غيره ، ولكن الا يكفي انها أماتتني وأنا حي ؟

كليرة هانم ـ قلت لك مرارا انها لاتقصدك ؟ انها تتحدث عن كائن تعرفه ؟

راتب فليكن ؟ ولكن ألم تسأليها عن ذلك الشبيه !

كليرة هانم ولماذا أسألها ؟

راتب ـ في باب أحاديث السيدات ؟ على اني أرجوك رجاء خاصا ان تسأليها عنه ، أريد أن أعرف ذاك الشبيه ومن يكون ! وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، مالهم به من علم الا اتباع الظن ؟

كليرة هانم ـ سأفعل ، اطمئن جدا ، اهدأ ألا ترى يا اخي انك موضع الاهتمام ومحط الانظار ، أشكر الله ؟ انه شيء عظيم ؟

راتب ـ لاعظيم ولا شيء ، ان البعد عن مثل هذه الانظار نعيمة على أمثالي هادئ مطمئن ، مؤمن راض بما قسم الله لي ؟

***

ثم يذهب راتب الى تعصية اليوم عند صديقيه عزمي وكليرة هانم ويدور الاحاديث عن الناس وطبائع الناس وأحاديث الناس وليس غير الناس ويعمل عزمي وكليرة جهدهما للتخفيف عنه ، اما هو فيتكلم شارحا نفسه

فيتركانه يتحدث ويصغيان اليه باهتمام يرضيه ويخفف عنه فيذكر زواجه وضياع زوجته التي كان يحبها حبا لم يحبه لاحد .. والتي كان يرجو ويعمل لان تعيش معه . يقول كان الحب بينا عنيفا . ولكن كان الزواج تعسا .

ويتحدث فيقول سبحان الذي يجمع بين الحب والزواج .. ويقول عن حبه انه احتفظ به نابضا حيا قويا ، وانه استطاع بعد مجهود كبير شاق ان يفرق بين الحبيب والحب، وان يصبرني هذا وذاك وان هذا شيء وذاك شيء آخر .. وانه يعلو بالحب عن الحبيب ، انه مسؤول كل المسئولية عن الحب ، غير مسئول اقل المسئولية عن الحبيب .

***

يقول انه استطاع أن يحمل من حبه بديلا عن شريكة الحياة .. اذ هو من الموحدين، دنيا ودينا ، حمل حبه وحيده الذي يرعاه وحده ، أعز شيء لديه .. يؤنسه في وحدته ويخفف عنه في محنته ، بل يدفعه الى الامل فالعمل .. الى المجتمعات والندوات والقوميات والوطنيات عفلا عن الاصلح الادنى الذي هو تحريرته .

حمل حبه روحا وكيانا ، وكاد ان يخلق منه انسانا .

ويشرح رأيه يقول ، مراحان وعقليتان ونشأتان هي العوامل الثلاثة للزواج .. لابد من التعادل بينها ، متساندة متماسكة حتى تكون الحياة الزوجية سعيدة ناجحة فاذا اختل التعادل ضعف التعامل .. وادى لكل وجهة هو موليها .. لا ضرر ولا ضرار .

وينتهي راتب الى فكرة تحولت الى عقيدة انطوى عليها قلبه يسير بها في ركب الحياة وحيدا وان كان وسط الجماعة من البشر .

– «محبوبه هو حبه وحبه هو محبوبه» وكان الله يحب المحسنين ..

***

احست كل من كليرة هانم وزوجها الاستاذ الكبير عزمي ، في هدوء وانتباه واشفاق مع عطف أصيل لصداقة قديمة عظيمة متينة صافية سامية نامية .

– كليرة هانم (في رقة وعطف)، تسمح يا راتب ان أسألك سؤالا أرجو الا يثير منك ثائرة الاعصاب . «انا تراك من المحسنين» .

راتب تفضلي . اسأل ماتشائين اطمئني انى قادر على نفسي تمام القدرة وارادتي .. ولأني أرى دائما أن البادى أظلم ..

كليرة هانم سلاما تضايقت هذا الضيق الشديد الذي أخرجك عن هدوئك المعهود ؟

راتب – (بعد فترة سكون) أن تلك السيدة هي التي كانت زوجتي ...